المبحث الثالث

الفواصل المنفردة في خواتيم السور

لا يخطئ الباحث في إعجاز القرآن ، إيقاعًا ودلالةً ، كثرة الفواصل المنفردة في خواتيم السور بما تحدثه من مفاجأة تلفت إلى الغايات والمقاصد « لأنها آخر ما يبقى بالأسماع ، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها ، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها ، وفي قوتها وجزالتها وينبغي تضمينها معنى تامًّا يؤذن السامع بأنه الغاية والمقصد والنهاية » [1] .

والمتأمل في الفواصل المنفردة في خواتيم السور لا يخطئه سر عظيم من أسرار الإعجاز حين يشير القرآن بإفراد الفاصلة إلى إفراد الله ـ تعالى ـ بالوحدانية والإحاطة بما خلق ، والتفرد بالبقاء بعد إفناء ما سواه .

وقد وقعت هذه الفواصل المفردة في خواتيم ثماني سور ، هي : آل عمران ، والنساء ، والنجم ، والمزمل ، والانفطار ، والضحى ، والعلق ، والمسد ، وهي في جميع هذه السور تخالف الفواصل قبلها في الوزن والروي عدا السورة الأخيرة التي تنفرد في رويها فقط .

ففي آل عمران بنيت الفاصلة على الميم والنون المردوفتين بالواو أو الياء في معظمها ، إلى أن بدأ النظم في نهايتها يلفت عقل المتلقي إلى التفكر في خلق السموات والأرض ، واختلاف الظواهر الكونية ، واتساق حركتها ، وما تلاه من ابتهال الذاكرين الله تعالى ، فتغير نظام الفاصلة من الآية ١٩٠ إلى الآية ١٩٩

---

(١) الطراز ١٨٣/٣، يحيى بن حمزة العلوي، دار الكتب العلمية ، بيروت .

لتنتهي بحرف متحرك يُحْدث ترجيعًا يلائم ترجيع الداعي ، وتغير الردف من الواو أو الياء إلى الألف ، متناغمًا مع التحديق بالنظر في ملك الله ـ تعالى ـ والتوجه إلى مالك الملك ، يقول سيد قطب : « وفي آل عمران سارت السورة على القافية الغالبة حتى قرب النهاية فلما بدأ دعاء طائفة من المؤمنين ، يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، تغيرت الفاصلة هكذا ﴿ **رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ** ﴾ ، إنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية الطويلة الخاشعة » [1] .

وفي الآية الأخيرة من السورة عدل النظم إلى تغيير الفاصلة لتختتم السورة بإيقاع مغاير لما قبلها ، داعية إلى تقوى الله ليكون ذلك آخر ما يدوي في السمع ، وليتلاقى مقطع السورة مع مطلعها في الإيقاع والانقطاع إلى الله بالكلية .

فكما أفراد الله ذاته العلية بالوحدانية في مطلع السورة : ﴿ **الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ** ﴾ (آل عمران:١،٢) شاء أن ينهيها بدعوة المؤمنين إلى إفراده بالتقوى ، ﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (آل عمران:٢٠٠) فتجاوب مطلع السورة ومقطعها إيقاعًا ودلالة ، إذ انفردت الفاصلة الخاتمة للسورة بإيقاعها عما قبلها ، لتلتقي مع فاصلة المطلع في الروي الأثير لهذه السورة ، ولمعظم الفواصل في القرآن الكريم ، وهو النون والميم المردوفتين بواو المدِّ وبائه .

ومن عجب في النظم الحكيم ذلك الترابط الساري بين مطالع السور ومقاطعها ، من ناحية ، وبين مقطع السورة ومطلع التي تليها ، وهو ما يلفت إلى وحدة النص غاية وأسلوبًا ، كما وجدناه في سورة آل عمران ، وتجسده سورة النساء كذلك ، فكما اختتمت سورة آل عمران بدعوة المؤمنين إلى التقوى ، افتتحت سورة النساء بعدها بدعوة الناس جميعًا إلى تقوى الله في رعاية حقوق

---

(١) التصوير الفني ص ١١٠- ١١٢ بتصرف .

النساء زوجات وأرحامًا ، مؤكدًا ذلك بالتكرار حينًا ، والتلويح بالعقاب حينًا آخر ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (النساء:١) .

فكانت التقوى هي العروة التي ربطت بين ختام سورة آل عمران ، وبداية سورة النساء ، ثم جاءت الآية الأخيرة من سورة النساء بعد فاصل طويل استغرق مائة وخمسًا وسبعين آية لتشير إلى وحدة الغاية التي أومأ إليها استهلال السورة تحذيرًا من تجاوز شرع الله فيما حدَّه من قوانين الميراث التي كفلت حقوق الأقارب نساء ورجالاً ، ولفتت أسماع المتلقين وعقولهم ـ بإيقاع فاصلتها ودلالتها ـ لمراقبة الله تعالى المحيط بسرائرهم ، القائم على كل نفس بما كسبت أو اكتسبت ، واستحضار الهدف الأسمى مما ضمنه الله هذه السورة من تشريعات لإقامة العدل وعدم الجور على النساء ، ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النساء:١٧٦) .

فقد تلاقت الآية الأخيرة في دلالتها مع الآية الأولى ، حيث دعتا معًا إلى مراعاة حقوق الأرحام رجالاً ونساء ، وأشارتا معًا إلى أن الله رقيب على عباده لا تخفى عليه خافية ، وهو بمفهومه تحذير من عقاب الله ﴿ وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، ﴿ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ولا يخفى على المتأمل ـ مع وحدة الغاية في المطلع والمقطع ـ وحدة النسق في الأسلوب ، يشهد به تكرار « رجالاً ونساء» وتقديم المتعلق « عليكم رقيبا » « بكل شيء عليم» لكن المفاجأة جاءت في إيقاع الفاصلة الأخيرة من السورة التي بنيت فواصلها على المد بالألف المنقلبة عن التنوين ، وهو إيقاع يناسب سمة التشريعات التي تحقق

عدالة السماء والارتفاع بأحكام السماء عن قوانين أهل الأرض التي تحكمها الأهواء ، ويعتورها العجز والقصور فكان إفراد الفاصلة بالوقوف على الميم الساكنة بعد المد ، إيماء إلى الاستقرار الذي يحققه شرع الله ـ تعالى ـ وتستريح إليه النفوس المؤمنة استراحتها إلى النغم بهذا المد الطويل العارض للسكون والتلويح بانفراد الله ـ تعالى ـ بالعلم المحيط لمن خلق، ولما يصلح هذا الخلق، قطعًا للألسنة التي توشك أن تفتات على العليم الحكيم ، وتقضي في المواريث بغير ما قضاه .

ونشير هنا إلى أن الآية الأخيرة التي خولف فيها إيقاع الفاصلة قد مهد الله فيها لهذه المخالفة في الإيقاع بطولها الذي يباعد بين إيقاع هذه الفاصلة والفواصل قبلها ، وهو الأمر نفسه الذي رافق المغايرة في ختام سورة المزمل ، التي بنيت فواصلها على ما بنيت عليه فواصل سورة النساء ، وختمت بفاصلة منفردة على روي فاصلتها المنفردة ، بطول الآية الأخيرة منها كما طالت هنا ، وهو ضرب من الإعجاز في الإيقاع ﴿ **وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا** ﴾ (النساء:٨٢) .

وسورة النجم صُدِّرت بالحديث عن الوحي والموحى إليه وعروجه إلى الملأ الأعلى ، وما أفاضه الله تعالى على رسوله ، في إيقاع رخي منتظم بألف المد ، الذي انتظم فواصل السورة في ست وخمسين آية ، ليتجاوب هذا الإيقاع مع ظلال الحب والحنان الذي غشي به الله نبيه الكريم ، فيما يحكيه الله عن هذه الرحلة العلوية ، وهذا الإيقاع هو الأثير في أساليب القصص القرآني ، الذي يصاحب رضا الله ـ تعالى ـ وحُنوّه ، كما في هذه السورة ، وسورة طه ، وعبس ، والأعلى ، والضحى ، وليحلق المد بالألف في فواصل السورة مع الرحلة العلوية ، فترتفع معه البصائر لتشاهد تجليات الله على رسوله في الأفق الأعلى.

حتى إذا ما اقتربت السورة من نهايتها بدأ النظم يعدل إلى إيقاع سريع ، مشحون بنذر التهديد والوعيد للمكذبين برسول الله ، المستهزئين بوحيه ، ليصل

إلى قمة الإثارة في الفاصلة الأخيرة المنفردة ، وهي تلفت بانفرادها إلى وجوب إفراد الله تعالى بالعبودية له والسجود لوجهه الكريم ﴿ فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ ﴾ (النجم:٦٢) .

وهذه بمثابة النتيجة الحاسمة التي مهدت لها السورة بالحديث عن الوحي ، وما أعقبه من إبطال الشرك ودعاوى المشركين . إنها جاءت ـ كما يقول سيد قطب ـ صيحة مدوية تصرخ في آذانهم وقلوبهم ، « وإنها لصيحة مزلزلة مذهلة في هذا السياق ، وفي هذه الظلال ، وبعد هذا التمهيد الطويل الذي ترتعش له القلوب » [1] .

وذلك هو نفس ما اختتمت به سورة العلق ، مع فرق ما بين تعميم الأمر بالسجود والعبادة ليشمل جميع المخاطبين في سورة النجم ، وتخصيص الخطاب برسول الله في سورة العلق ، حيث كانت منذ البداية خطابًا خاصًّا له ـ عليه السلام ـ وإعلانًا ببدء الرسالة العظمى ، وكان التغيير المفاجئ في الفاصلة الختامية لفتًا إلى الغاية الكبرى من الأمر بالقراءة والحث على العلم ، والاجتهاد في الأخذ بأسبابه ، وهي التعرف على الله ـ تعالى ـ الذي علم الإنسان ما لم يعلم ، وإفراده بالطاعة والعبودية ، وهي القيمة الحقيقية للعلم النافع ، فالانصراف إلى الله والانشغال بعبادته وحده هو ما تجسده دلالة الانفراد في الفاصلة الختامية : ﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾ (العلق:١٩) .

أرأيت كيف التقت وحدة الفاصلة بوحدانية الله وانفراده بالعبودية ، ولفتت العقول والقلوب إلى الغاية من العلم والتفكر في خلق الله وصولا إلى الخالق والسجود لوجهه الكريم ؟!

ولتتأمل سحر البيان وتناغم المطلع والمقطع في سورة الانفطار ، وما للفاصلة المنفردة في ختام السورة من جمال فريد يشهد بإعجاز الذكر الحكيم ، فقد بدأت السورة بوصف الانقلاب العام في الكون ، والتغيير الذي يشمل جميع

---

(١) في ظلال القرآن، ٦/٣٤١٩ .

ظواهر الخلق ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ۝٤ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ (الانفطار:١-٥) لتمتد يد الفناء إلى كل كائن في الوجود ، حتى إذا جاءت الفاصلة الأخيرة منفردة في إيقاعها ، كان انفرادها معبراً عن انفراد الله بالأمر وحده ، لافتًا إلى تعانق المطلع المعبر عن فناء الخلق مع المقطع المعبر عن انفراد الله بالبقاء ، والتصرف في الملك ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾(الانفطار:١٩)،ولتأتي الفاصلة بهذا المد الذي يضاعفه الوقف على السكون العارض ، بما يستلزمه من إطالة الصوت بلفظ الجلالة ، المنتهي بالهاء الساكنة ، العميقة في مخرجها ، الهامسة في صوتها ، المؤذنة بالاستقرار والدعة بعد تسليم الأمر لمالكه ، ولذا لم يقدم لفظ الجلالة للاختصاص على عادة النظم القرآني ، كما في مثل قوله تعالى : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (الشورى:٤٩) ، حتى لا يَفُوت هذا السحر في الأداء إيقاعًا ، وليبقى الاسم العظيم ملء الأسماع والقلوب ، وآخر ما يدوي في الآذان . يقول الحسناوي : « تلك الفاصلة التي تركز الانتباه بانفرادها أولاً ، وتميزها ثانيًا ، وانتهاء النص عندها ثالثًا ، لنكتة بلاغية دينية ، ترمي إلى رد الأمر كله إلى الله ـ تعالى ـ الذي كانت الفاصلة متضمنة اسمه ـ عز وجل ـ في الوقت الذي كان فيه النص بمجموعه ومضمونه يمهد لهذه الخاتمة الشامخة باستقرار القرار على السكون بعد ألف المد » [١] .

وفي سورة المزمل يمضي الإيقاع وئيدًا في فواصل متحدة الوزن ، وتكاد تكون « على روي واحد هو اللام المطلقة الممدودة ، وهو إيقاع رخي وقور جليل ، يتمشى مع جلال التكليف وجدية الأمر ، ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق » [٢] .

---

(١) الفاصلة القرآنية ص ٢٠٨ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٧٤٣ .

إن الفاصلة هنا تكاد تحكي بإيقاعها البطيء الذي أطال زمنه المدان حركة المتلقي وقد ناء بثقل ما كلف به ، وهو يستجمع كل قواه للنهوض بما ألقي على كاهله ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل:٥) ، ﴿ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً ﴾ (المزمل:٦) ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً ﴾ (المزمل:٧)، وهي تحكي كذلك صوت القارئ ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل:٤)، وتصور طول العذاب للمجرمين وشدة وطأته ، وصعوبة ازدراده للطعام وعسر ابتلاعه ﴿ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (المزمل:١٣) .

فإذا ما وصلت السورة إلى الآية الأخيرة ، وكان النبي ـ عليه السلام ـ وأصحابه قد سارعوا إلى الامتثال لما أمروا به ، ورأى الله ـ تعالى ـ منهم حسن الاستجابة ، غيَّر النظم الكريم روي الفاصلة وإيقاعها بعد آية طويلة مهدت لهذا التغير ، وجاءت القافية ميمًا مردوفة بالياء ، موقوفًا عليها بالسكون العارض ، المستلزم لإطالة المد مع الترنم في صوت الميم بعد آية طال النَّفَس فيها ، لتكون أشبه بالاستراحة بعد طول العناء ، معبرة عن الرضا النفسي ، لمن غمرته النشوة والسعادة برضا الله تعالى وحسن ثوابه . يقول صاحب الظلال : « فأما الآية الأخيرة التي تمثل شطر السورة الثاني ، فقد نزلت بعد عام من قيام الليل حتى ورمت أقدام الرسول ﷺ ، وطائفة من الذين معه ، والله يعدُّه ويُعدُّهم بهذا القيام لما يُعدُّهم له ، فنزل التخفيف ومعه التطمين ، بأنه اختيار الله لهم وفق علمه وحكمته بأعبائهم وتكاليفهم التي قدرها عليهم ، أما هذه الآية فذات نسق خاص ، فهي طويلة وموسيقاها متموجة وعريضة ، وفيها هدوء واستقرار ، وقافية تناسب هذا الاستقرار ، وهي الميم وقبلها مدُّ الياء ﴿ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ »[1] .

وفي اختتام سورة الضحى بفاصلة منفردة مثالٌ جلي ، ودليل آخر على أن تغيير الفاصلة مقصد من مقاصد النظم ، كما أن مراعاة الفاصلة مقصد آخر من

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٤٧٤٣ .

مقاصده ، وهي أقوى رد على هؤلاء الذين يذهبون إلى أن القرآن يعمد أحيانًا إلى مراعاة الفواصل ، طلبًا للمشاكلة اللفظية فحسب ، فقد انفردت الفاصلة في قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى:١١) عما قبلها وتغير فيها حرف الروي من الراء إلى الثاء ، مع إمكان أن يقال : (فخبِّر) لتتواطأ الفواصل على روي واحد ، وتتحقق المشاكلة اللفظية مع أداء أصل المعنى .

إلا أن القرآن آثر هذه المخالفة وقصد إليها لأسباب تتعلق بدواعي النظم وأغراضه ، أولها : ما أشار إليه الرازي : « واختار قوله ﴿ فَحَدِّثْ ﴾ على قوله : « فخبر » ليكون ذلك حديثًا عنده لا ينساه ، ويعيده مرة أخرى » [١] ، ولعل هذا ناظر إلى مادة الحديث ، وما تشيعه في سياقها من دلالات خاصة ، أشار إليها ابن فارس في معجمه : « والرجل الحدث : الطري السن ، والحديث من هذا ، لأنه كلام يحدث منه الشيء بعد الشيء » [٢] .

ففي الحديث إيحاء بتتابعه وتكراره ، لأنه يحدث عن إقبال النفس ، ورغبة في الإفضاء بما تكنّه ، وهذا يتناسب مع جلال التبليغ بالرسالة ، ورغبة الرسول الشديدة في إيصال كل ما عَلِمَه عن ربه إلى من أرسل إليهم ، ومن ثَمَّ كانت عناية القرآن بإظهار هذا المعنى فوق عنايته بتجانس الفواصل .

ثانيها : أن تأخير التحدث بالنعمة ليقع في ختام السورة ، وآخر ما يقرُّ في الأسماع مقصود إليه ، وهو لذلك جرى على خلاف الأصل في تقديم الأهم ، لأن حق الله مقدم على حقوق العباد ، ولكن النظم هنا قدم فيه النهي عن قهر اليتيم ، ونهر السائل ، وهما من حقوق العباد ، حتى ذهب بعض المفسرين إلى أن هذا الترتيب جاء رعيًا للفاصلة[٣] بناء على أن الترتيب لم يجئ على نسق

---

(١) تفسير الرازي ٢٢١/٣١ .

(٢) مقاييس اللغة ٣٦/٢، أحمد بن فارس تحقيق : عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة عام ١٩٨١م .

(٣) ينظر روح المعاني ١٦٥/٣٠، محمود شكري الألوسي، إحياء التراث العربي، بيروت.

اللف ، في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى:٦-٨) ، فكان حق الترتيب أن يقدم النهي عن قهر اليتيم في مقابل إيواء الله لنبيه يتيمًا ، ويثني بالتحدث بنعمة الله في مقابل هداية الله له ، ويؤخر النهي عن نهر السائل في مقابل إغناء الله له من العيلة ، فلو قدمت الآية الأخيرة لذهب التلاؤم بين الفاصلتين : « تقهر وتنهر »، وهو ما جعل الشهاب الخفاجي يرد على مثل هذا القول : « ولم يراع الترتيب ، لتقديم حقوق العباد على حقه ـ تعالى ـ فإنه غني عن العالمين ، لا لرعاية الفواصل فإنه يحدث بالعكس »[1] .

ويقيننا أن هذا التقديم ليس رعاية للفاصلة ، لأنه لو كان ذلك هو الغرض لقدمت الآية الأخيرة على الآيتين السابقتين معًا دون أن يخل ذلك بالتجانس بين الفاصلتين ، ثم إن تقديم حق العباد كما ذهب إليه الشهاب مخالف لما درج عليه النظم القرآني في تقديم حق الله على حق العبد من مثل : ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

(النساء:٣٦) .

إن هذا التغيير فيما نراه ـ والله أعلم بمراده ـ جاء في ختام السورة لإثارة الاهتمام ولفت الانتباه إلى المقصد الأسمى من السورة ، وهو الحث على انصراف رسول الله ـ عليه السلام ـ وإقباله بكليته على تبليغ دعوة ربه، وأداء رسالته على وجهها الأكمل ، وتلك هي نعمة الله الكبرى عليه وهو ما يفسر شدة حزن الرسول ـ عليه السلام ـ حين فتر عنه الوحي ، وطمأنة الله له بصورة حشد فيها أبلغ أدوات التوكيد . على أن انقطاع الوحي ما كان توديعًا له ولا قلًى ، وهو ما ذهبت إليه بنت الشاطئ في تفسيرها للنعمة : « وإنما التحدث هنا هو

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي ٧٣/٨، الشهاب الخفاجي ، دار الطباعة العامرة ببولاق عام ١٢٨٣هـ .

صريح ما تعلق به ، مما يتصل بمهمة الرسول التي اصطفي لها ، وهو أن يبلغ رسالة ربه ، ومن هنا نؤثر أن تكون النعمة هنا ـ مهما يكن من دلالتها المعجمية اللغوية ـ هي الرسالة ، أكبر النعم التي يؤثر بها نبي مرسل»[1] .

وبهذا تحقق للفاصلة غايتها في أن يتجاوب انفرادها مع إفراد الله ـ تعالى ـ بالحديث عن نعمه ، شأنها شأن كل السور السابقة التي أومأ الانفراد فيها إلى إخلاص الله بالعبودية ، والطاعة والتحدث بنعمه .

خاتمة :

إذا كانت الدراسات التي تصدت للفواصل القرآنية عمدت إلى إبراز ما فيها من جمال الإيقاع وما يحدث من أثر وجداني يحقق المتعة النفسية باستجابته للتوقع ، فإن هذه الدراسة حاولت البحث عن المتعة العقلية من وراء كسر الإيقاع ، بما يصاحبه من مفاجأة تلفت القلب إلى غاية يهدف النظم الحكيم إلى التركيز عليها . وغالبًا ما يلتقي إفراد الفاصلة بإفراد الله تعالى بالوحدانية ، وتفرده بالألوهية والهيمنة كما في الفاصلة المنفردة من قوله تعالى ﴿ **ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ** ﴾ (يوسف:٣٩) أو تفرده بالقضاء وتدبير الخلق ، كما في قوله تعالى : ﴿ **كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ** ﴾ (الرحمن:٢٩) وقوله : ﴿ **يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ** ﴾ (الانفطار:١٩) أو الإشارة إلى انفراده وحده بالعبودية وتطامن الرءوس لوجهه ، كما في قوله تعالى : ﴿ **فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟** ﴾ (النجم:٦٢) وقوله : ﴿ **كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب** ﴾ (العلق:١٩) ، وكما أومأت الفاصلة المنفردة في قوله تعالى : ﴿ **صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ** ﴾ (ص:١) بإفراد القرآن بالبقاء حيًّا يهدي قلوب الخلق ما بقي في الكون قلب ينبض ، فهو الذكر الباقي الذي تعهد الله بحفظه في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ** ﴾ (الحجر:٩) ، ولا غرو أن يتكرر لفظ «الذكر» في سورة ص بما لم يتكرر مثله في سورة أخرى في ظاهرة فريدة ،

---

(١) التفسير البياني ١/٥٤ .

تؤكد انفراد القرآن عن سائر الكتب السماوية التي امتدت إليها يد العابثين بالتحريف والتبديل ، وعجزت عن المساس بهذا الكتاب الدائم الذكر ، كما عجزت عن مداناته في نظمه .

وهناك إشارة لافتة في تطويع القرآن الخصائص الصوتية في الفواصل المنفردة لمحاكاة المعاني التي تلفت إليها بانفرادها ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ (طه:١٤) ، فكان المد بالياء حكاية صوتية لانفراد الله تعالى بالسجود لوجهه ، بعد أن كانت الفواصل قبلها وبعدها معتمدة على المد بالألف المصور للتجليات الإلهية ، واجتذاب الرسول من واقعه المضني ومعاناته مع أهل الأرض ، إلى فضاء تنطلق فيه روحه إلى الملأ الأعلى : ﴿ طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذۡكِرَةٗ لِّمَن يَخۡشَىٰ ۝٣ تَنزِيلٗا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى ﴾ (طه:١-٤) .

إن إيماءات الفواصل المنفردة تكاد تكون ضربًا من الإعجاز في نظم القرآن ، كما أن الفواصل المتآخية ضرب آخر من الإعجاز في تفردها بإيقاع لا يتسرب إليه الملل ، ولا يعكر موسيقاه استكراه أو قهر للألفاظ والمعاني .

إن القرآن في إيقاعه وكسره للإيقاع لا يعتمد على التأثير الصوتي وحده في الاستجابة للتوقع أو المفاجأة التي تحدث الصدمة السارة ، بل يسخرها لإحداث متعة عقلية يتجاوب فيها الجمال اللفظي مع الجمال المعنوي ، وهذا ما كانت تهدف إليه هذه الدراسة ، وأحسب أنها قدمت دليلاً عليه ، والله أعلم بما أودعه في نظمه من حقائق الأسرار .

* * *